رواية
لماذا وداعًا؟
وليس إلى اللقاء
جنى الجارحي
دار ضحى

لماذا وداعاً وليس الى اللقاء

احذر، احفظه بعيدًا عن متناول العقلاء!

جنى الجارحي

المقدمة

عزيزي القارئ عزيزتي القارئة، أقسم أنني فكرت لأيام في وضع مقدمة وما شابه، ولكن صدقني لم ينجح الأمر، بطبيعة البشر أنت تشتري الكتاب فقط لتتصيَّد الأخطاء لي؛ لذلك فأنا فعلًا شخص مليء بالأخطاء ولا داعي لأن تتأثر بأيةِ فكرة من أفكاري، وهذا إقرار مني شخصيًّا أن جميع أفكاري لا تمت بصلة للمجتمع ولا الدين ولا حتى الخيال، وإنني لست أحد يتأثر به، مجرد هاوٍ بلا هاوية، إن كنت تقرأ المقدمة قبل أن تشتري الكتاب فاحذر من شرائه، احفظه بعيدًا عن متناول العقلاء.

تنويه

لا داعي لفنجان القهوة الذي ترتشف منه أثناء قراءة الرواية، صدقني يكفي عليك مرارة القراءة، احفظ الرواية بعيدًا عن متناول العقلاء.

كانت نسمات الهواء تغازل السماء في الليل وهي تنظر إلى جمال سماء بلدها التي كانت تضاهي سماء الكون، غازل الهواء خصلات شعرها التي ظهرت بعدما أزاح الهواء حجاب رأسها، وعلى أنغام الموسيقى صارت تتمايل بهدوء حتى ابتسمت وهي تشعر بأنها تمتلك العالم، سقط من فوق خصلاتها "الشال" وهي تدندن مع النغمات التي تسحرها "فيروز":

" ياريت الدنيا بتصغر وبتوقف الأيام..

هالأوضة وحدا بتسهر وبيوت الأرض تنام..

تحت قناديل الياسمين إنت وأنا مِخبَّايين..

نحكي قصص حلوين..

ولا مين يدرَى شو صار".

شهقة عنيفة صدرت منها وهي تشعر بحركة سريعة في الشرفة، تراجعت للخلف قبل أن تجده أمامها يبتسم على تلك الحالة التي أصابتها من الخوف، بينما هي دفعته للخلف وهي تعود لغرفتها تعيد حجابها فوق رأسها مرة أخرى.

تحدثت ياسمين بعتاب وهي تنظر إليه بغضب:

هل تريد أن تفقدني صوابي في يوم؟ توقف قلبي رعبًا يا عبد الرحمن، ثم كيف تدلف إلى لغرفتي هكذا مثل اللصوص؟

رمقها مستنكرًا من كثرة حديثها وهو يعود للخلف قائلًا:

- ما كل هذا يا فتاة؟ هلا توقفتِ عن الثرثرة قليلًا؟

ذمت شفتيها بحزن وهي تشعر بإهانة في حقها:

- حسنًا، سأتوقف ولكن أُغرب عن وجهي واترك غرفتي حالًا.

ابتسم وهو يقترب من النافذة يمسك بالمذياع قائلًا بحب:

- أقول لو نستمع إلى "فيروز" معًا قبل أن أرحل، يكون أجمل ياسمنتي.

نظرت إليه بطرف عينيها قبل أن تذهب لتجلس بجانبه بضجر وهي تعيد تشغيل المذياع مرة أخرى، ولكنها وجدت شيئًا تلك المرة أجمل من سماء رام الله؛ هي عيون عبد الرحمن، عيون الحبيب التي تمتلك الوطن، صدح صوت "فيروز" مرة أخرى وهما يدندنان معًا، كلٌّ منهما يقصد الآخر بكلماته، وكأن الأغنية تشرح مشاعرهما.

"يا أوضة صغيرة، صغيرة فيها الحب تلاقيت..

أوسع من دنيا كبيرة وأغلى من ميت بيت..

تعبانة وبدي حاكيك حاكيني الله يخليك..

نقلني على شبابيك الليل وعلى سطوح الدار".

تحدث عبد الرحمن بوعد وهو ينظر إلى عينيها وهي تشيح البصر عنه:

- أوعدك بعد زواجنا سأنقلك على سطوح الحي بالكامل حبيبتي.

ابتسمت وهي تنظر إليه واضعة يدها أسفل وجهها تستمع إليه قبل أن تتحدث قائلة:

- ولكن، أشعر أن كل شيء ليس على ما يرام، أنت تعلم تلك هي السنة الدراسية الأخيرة بالمدرسة، وأنا أخشى الرسوب، صحيح لماذا لم تعيد التفكير بالتعلم مرة أخرى بعد أن تركت المدرسة مبكرًا؟

-

أشاح نظره إلى السماء؛ فهي وضعت يدها على جرحه دون قصد منها، أجابها بابتسامة تحمل آلامه:

- و إن ذهبت للتعليم مرة أخرى من يتولى إخوتي وأمي؟!..
تعلمين يا ياسمين بعد استشهاد والدي على يد الاحتلال، لم يبقَ إلا أنا لكي أعتني بهم وبكِ -أيضًا- بعد زواجنا.

ربتت فوق ذراعه وهي تبتسم له، بينما هو أعطاها بيدها ور بيضاء قطفها لها قبل أن يقف بين الفرق الذي يقفز من عليه، تحدث إليها بحنان وهو يرفع إليها طرف الشال الذي يغطيها من البرد قائلًا:

_ الآن، عودي إلى الداخل؛ الجو بارد بالمساء، ويجب أن تتجهزي لاختبار غدًا، أثق بكِ كثيرًا يا فتاة، ولكن يجب أن تجتهدي يا وردتي الجميلة، أحبك ياسمين.

قال جملته تلك وذهب تاركها تنظر إلى النجوم بهيام وإلى لغرفة بعشق والوردة بحب، ترى العالم بأكمله من هنا من شرفة منزلها وتحت تهديد الاحتلال والقصف، ورغم ذلك حبه لها يجعلها حرة، يجعل رام الله حرة، يجعل الوطن بأكمله يتحرر بالحب.

في صباح اليوم التالي، كانت الشمس مشرقة تغطي سفح رام الله بالدفء الذي سرقه العدوان، كانت تداعب الشمس الأطفال توعدهم بمستقبل لا يوجد به قصف ولا قتل، لا يوجد به إلا الأحلام التي سلبت منهم، فقط الأحلام والوطن، بينما ياسمين كانت تتجهز للذهاب إلى مدرستها، لم تكن تهتم لمظهره رغم جمال عينيها التي نسجت من رام الله بلون الأرض البني، لم تكن تهتم لأنها تعلم أنه على موعد مع الخوف مع القلق موعد مع الموت أيضًا.

خرجت من غرفتها وهي تودع والدتها ورد التي تحدثت وهي تعد الفطور قائلة بحنان:

- عليك أن تأكلي طعامك قبل الذهاب إلى الاختبار.

ذمت ياسمين شفتيها بهدوء وهي تقبل رأس والدتها تحاول إرضاءها قبل أن ترحل:

- أمي، يجب أن أذهب الآن، ليس هناك أي وقت لكي أضيعه، تعلمين الطرق من هنا إلى لمدرسة ليست سهلة.

تركتها ورحلت وهي تحمل عبء الاختبار فوق قلبها تشعر بالقلق والتوتر يصيبها من الآن، هذا اخر اختبار لها، دائمًا كانت تتذكر وصية أبيها لها، أن تتعلم وإلى الآن ما زالت تحمل تلك الوصية، كانت تنظر إلى الحي والشوارع بهدوء، شعور بالحسرة لا يمكن أن تخرجه، هل تلك بلدها؟ بالتأكيد شوهت قتلت ألف مرة، مرسوم فوق وجوه المارين بجانبها الحزن والحسرة مثلها، كل منهم يتحسر هذا يقهر على بلده التي نهبت، وتلك على زوجها الذي استشهد، وهذا على مستقبله الذي ضاع، وهذه على ولدها الذي قتل، حتى هؤلاء الأطفال يشعرون بالظلم على واقعهم الأليم، الجميع يحمل البلد بداخل قلبه وبين ثنايا روحه، رام الله تسري في دمائهم وفلسطين وشم فوق القلوب.

انتبهت لوجود مجموعة من الضباط اليهود أمامها، نظرت إليهم بهدوء وهي تتقدم بنفاد الصبر تتلاشى وقوع عينيها معهم، تقدم منها أحد العناصر وهو يتحدث إليها بأمر:

- اتركي تلك الحقيبة وضعي يديك للخلف؛ للتفتيش.

وضعت حقيبتها أمامه قبل أن تستمع إلى صوت هادئ يأتي من خلفه، كان رجلًا على مشارف الانتهاء من عقده الثاني، مختلف عنهم بالشكل؛ كان طويل القامة ذا جثة ضخمة وعينين زيتونية، وخصلات بلون العسل.

اقترب منها بهدوء وهو يتحدث بالعبري، ولأنها كجميع سكان رام الله تتعلم العبرية منذ أوائل الدراسة، كانت تفهم حديثهم، أمره بأن يفتش الحقيبة وهو سيتحدث معها بعد التفتيش.

نظرت إلى تلك الشارة المعلقة به، اسمه وهو يفتشها بيده "ديلان" كانت تشعر بالحرج من لمساته، ودت لو كان بإمكانها أن تصفعه الآن لفعلته؛ الساقط يتحرش بجسدها ليس فقط يتفحصها!

تحدث بهدوء وهو يجلس فوق سيارته متسائلًا عن هويتها:

- اسمكِ ياسمين، أليس كذلك؟

أجابته بجمود بالعبرية وهي تشيح نظرها عنه تهندم ملابسها وحقيبتها:

- أجل، أُدعى "ياسمين موسى الكناني" هل يمكن أن أرحل الآن؟

عقد حاجبيه وهو ينظر إليها يمنعها بيده من الرحيل نبس بهدوء متسائلًا مرة أخرى:

- **كم عمرك ياسمين؟ إلى أين تتجهين الآن؟**

تحدثت بنفاد الصبر وهي تحاول أن تتخطى يده التي تقطع طريقها:

- **عمري سبعة عشر عامًا في المرحلة الدراسية الأخيرة، والآن أتجه إلى الاختبار، هل يمكنني العبور الآن سيدي؟**

لم يجيبها على سؤالها، بل أكمل كأنه لم يسمعها متسائلًا ببرود:

- **وماذا عن عائلتك، والدك من هم؟**

أجابته بهدوء وهي تتذكر والدها، كانت العبرات بداخل عينيها متحجرة:

- **أبي توفيَ منذ سنوات طويلة وليس لدي أقارب، وأمي من تولت رعايتي وليس لدي عائلة كبيرة، لقد استشهد جميع أفراد عائلة أمي في عام (١٩٤٨م) في الحرب.**

عقد ديلان حاجبيه وهو يسألها متعجبًا من جراءتها:

- **إذن، هل هي حرب من وجهة نظرك؟**

طفح الكيل بها وهي تتحدث بانفعال طفيف وهي تنظر للطريق أمامها:

- سيدي، لا يهمني إن كانت حرب أو لا، الآن فقط يهمني أن أذهب إلى الاختبار و أعدك مرة أخرى نتحدث عن هي حرب أو لا.

ابتسم بغيظ وهو يتركها ترحل قبل أن يتحدث إليها بصوت مرتفع:

- سنتقابل مرة أخرى، وعد سنتقابل.

قضت الطريق بأكمله تفكر بهذا الضابط المعتوه، تشعر بالاشمئزاز من لمساته لها، وبعد أن كانت تهتم للاختبار فقط الآن تحقد على كل هؤلاء "الصهاينة"، تحقد على كل لحظة قدوها في بلدها، انتهى الاختبار بسرعة، كانت سعيدة لأنه جاء سهلًا واجتازته بسهولة، تحدثت إلى عبد الرحمن بالهاتف كالعادة هو يأتي لكي يصلها إلى المنزل ولكنه لم يجيبها، وبعد أن فقدت الأمل قررت أن تعود وحدها.

وجدته يقف أمام محل عمله يستعد للذهاب إليها، لكنه عقد حاجبيه بتعجب عندما رآها أمامه، فاقترب منها مسرعًا بقلق:

- لماذا لم تنتظريني ياسمين، هل حدث شيء بالاختبار؟

حاولت أن تتماسك لكن أمامه لا يمكن أن تفعل، هذا تركت لعبراتها المتحجرة الحرية لكي تنهمر فوق وجنتيها وهو يمسك بيدها يحاول

أن يعيد إليها الاطمئنان، أمسك بيدها إلى مكان قريب يضع به مقعدين، أجلسها ووقف أمامها ينظر إليها بهدوء وهو يربت فوق يديها بحنان، يشعر بأن النيران تلتهم قلبه وهي تبكي.

بعد مدة قصيرة كانت تمسكت بنفسها وهي تتحدث إليه قائلة بحزن:

- ليس العيب بالاختبار عبد الرحمن، هناك ضابط جديد لم أره إلا اليوم، أظن أنه جاء بدلًا من "آيزاك" لقد.. لقد أمسك بجسدي تحرش بي وهو يفتشني.

برقت عينيه من الصدمة وهو يمسك بيدها يشعر بالبرد الذي أصابها قرب يدها من فمه وهو يحتضن يده بيديها، أخذ يتنفس بداخل يديها لكي تدفأ قليلًا، لم يكن يريد جرحها يخشى عليها من هواء السماء حتى ورغم كل هذا يشعر بأنه لو أمسك بهذا الوغد الساقط سيجعل من دمائه مشروبًا يوميًّا له!

تحدث وهو ينظر إليها بعد أن هدأت، حاول كبح غضبه في لهجته المستاءة:

- اهدئي يا وردتي، لن يعود هذا مرة أخرى، لقد مضى، أعدك لن أتركك تذهبين بمفردك مرة أخرى، لا تبكي أرجوكِ.

وضعت رأسها فوق يديه وهي تتقدم إلى المنزل بجانبه، ترك عمله لكي يوصلها إلى المنزل، في الطريق، تركها لدقائق شعرت بهم أنها كالعارية وسط الصحراء.

لكنها تفاجأت به يقطف لها وردة حمراء يضعها في معصم يدها وهو يتحدث قائلًا بحنان:

- أعلم أن قطف الورود شيء سيئ، لكني عندما أعيدها إليكِ تعود لموطنها الأصلي، أجزم أنني أشاهد الورود تتراقص بجانبك ياسمين.

ابتسمت وهي تثبت نظرها فوق وجهه بخجل قبل أن تودعه وترحل حتى دلفت داخل المنزل بقيت عينيها مثبته فوق وجهه،.وجدت ورد والدتها تنظر إليها بتساؤل عن حالتها تلك والدموع التي ما زالت معلقة على أهدابها، لم تعطها الفرصة للجواب وألقت بنفسها داخل عناق والدتها وهي تبكي قهرًا حتى صوتها غير مسموع هي و نساء بلدها، لا صوت يعلو فوق صوت الدمار، لا أحد يستمع إلى رام الله، لا أحد يستمع إلى فلسطين ولا إلى صوتها.

سردت لوالدتها كل ما حدث من هذا الضابط المعتوه وأنها أخبرت عبد الرحمن بكل التفاصيل ذمت ورد شفتيها وهي تلوم عليها بهدوء:

- لم يكن يصح أن تخبري عبد الرحمن، كيف شعوره الآن وهو يرى مخطوبته وزوجته بعد أشهر تتحدث عن هذا وهو لا يمكنه أن يدافع عنها؟

أجابتها بضجر وحزن وهي تنظر إليها بهدوء قائلة:

- أمي، أنتِ تعلمين أن ليس لي سوى عبد الرحمن، لمن كنت سأعطي سري إلا له؟ لا تخافي هو لم يغضب عليَّ من الأساس.

تحدثت والدتها بهدوء وهي تحاول أن تمسح عنها كل هذا العناء تزيح تلك الهموم من أمامها:

- أجل عزيزتي، والآن هيا عودي إلى الغرفة وأنا سأحضر لكي بعض من المخبوزات التي فعلتها اليوم، لن تصدقي أنها مصنوعة بالمنزل أبدًا.

ابتسمت لها وهي تحتضنها وتقبلها بحب قبل أن تعود لغرفتها بسعادة طفل تخطى كل أحزانه بعد عناق والدته، بينما عندما عاد عبد الرحمن إلى المنزل، كان منزعجًا وحزينًا بشدة، يشعر بالغضب ليس فقط لأنه تجرأ ولمس ياسمين؛ بل لأنها هي بالنسبة إليه الوطن، ويكاد يجزم أنه لم يشعر باحتلال وطنه إلا اليوم.

تحدثت والدته وهي تحاول أن تُهدِّئَ من عاصفته تلك التي تجتاح عقله ومشاعره:

- **ولماذا كل هذا العناء؟! كان من الأسهل أن تتزوجها قبل أن يحدث كل هذا في طريق المدرسة التي لا فائدة منها!**

تحدث بأسف وهو يعيد خصلاته للخلف بقوة:

- **لأن والدها طلب أن تُكمل تعليمها قبل الزواج، وتلك هي وصيته، أنا وهي على خطبة من وقت طويل كانت في الرابعة عشر والآن هي في السابعة عشر من عمرها، وأنا كنت في السابعة عشر والآن في العشرين، ولكن تلك وصيته ماذا سنفعل؟!**

ربتت والدته فوق كتفه بحنان وهي تطمئنه بهدوء:

- **لا تقلق يا ولدي، لم يتبقَّ إلا القليل؛ أسبوع وستظهر نتيجة الاختبارات وبعدها يمكنكم الزواج.**

واليوم تشرق الشمس في السماء مُعلنةً عن يوم جديد؛ يوم سيحدد قدرها، يوم يملأ العالم بالريبة، حتى السماء كانت ملبدة بالغيوم رغم الربيع، وكأن كل شيء أصابه الربيع إلا عمرها؛ أصابه الخريف.

ارتدت ملابسها وفستانها الأبيض الذي تزينه الزهور وهي تبتسم رغم شعورها بالخوف، لم تكن تعلم هل هذا الخوف بسبب صدور النتيجة اليوم أو لأنه اقترب موعد زفافها وهذا ما يقلقها.

ذهبت إلى والدتها التي كانت تنتظرها بالخارج وهي تحتضنها وتلثمها فوق وجنتها بقُبلة لطيفة.

تحدثت والدتها ورد بهدوء وهي تمازحها بحنان، كانت تحمل بيدها عدة حقائب ابتاعتها من السوق قائلة:

- الآن، سأحضر لكي أجمل طعام بحياتك، ولكن لا تتأخري لكي لا يبرد.

أومأت لها برأسها وهي تودعها وتذهب إلى عبد الرحمن الذي كان ينتظرها بالخارج، أمسك بيدها وهو يبتسم لها بهدوء، يرى العالم بأكمله في عينيها، تحدثت بتساؤل وهي تنظر إلى ملابسه بهدوء:

- ما هذا الذي أراه؟! عبد الرحمن يرتدي الأبيض! لا أصدق! لقد كنت متصالحة مع كونك تعاني من اضطراب ضد اللون.

سخر من حركاتها وهو يقلدها قائلًا بسخرية:

- وما هذا الذي أراه؟ ياسمين ترتدي الأبيض! لا أصدق عيني! هل صُنِّفَ اللون على أنه ملك لكِ مثلًا؟

ثم أكمل حديثه وهو يغازلها حتى الشمس غازلت عينيها وهي تتعامد عليهم: _ لا أعلم لماذا تصبحين أجمل هكذا كل يوم! أشعر أن بكِ سحرًا بعيون القهوة تلك! عيناكِ تشبه الياقوت لا تشبه الوطن قبل الاحتلال مزهرتان.

شعرت ياسمين بالخجل وهل تنظر إليه بهدوء قبل أن تتحدث بحب وهي تنظر إلى أجواء الطريق:

- سأقول شيئًا لم أقلْهُ لك من قبل أبدًا أنا محظوظة بوجودك كثيرًا، لا أحد يهتم لأمري كم تفعل أنت، لا أحد يشبه حنانك، لا أحد يهمني كم أنت تهمني.

ابتسم عبد الرحمن لها وهو يأخذ طريق منعطف آخر؛ كي لا يضطر أن يذهب إلى نفس المكان مرة أخرى الذي يوجد به الضابط:

- وأنا أحبك ياسمين، أحبك بشدة.. لا أعلم كيف قضيت تلك السنوات بدون اعتراف أني أحب ابتسامتك، عينيكِ، حديثك، أحب كل شيء بكِ، وكم أحب أن تكوني أمَّ أولادي! كم أحب أن أراكِ صباحًا وأنتِ تحملينهم! كم أحب الجدران التي تحتوينا في منزلنا المستقبلي!

قبل أن تجيبه كانا قد وصلا إلى المدرسة، وقبل أن تتدلف أمسك بيدها وهو يطمئنها؛ فقد ظهرت عليها ملامح الخوف والاضطراب:

- سيكون كل شيء على ما يرام وردتي، لا تقلقي حبيبتي.

دلفت بخطوات مضطربة كحال الجميع عند ظهور النتائج، كانت تخشي كل شيء في تلك اللحظة، ولكنها عادت تبتسم تدريجيًّا وهي تتذكر حديث عبد الرحمن إليها، فاجأته بالشهادة أمامه وقد نجحت بتقدير عالٍ!

أسرعت بالخروج وهي تهرول بسعادة غامرة ثم أمسكت بيد عبد الرحمن وهي تلتف حول نفسها بجنون، تشعر بشيء من الفخر، بالحب، بالسعادة، كل شيء.. اليوم جميل وسعيد، الفراشات عادت إلى الوطن، اختفى الألم وعادت الأحلام، انطفئ ضوء الاحتلال وظهرت الحرية وهي بين يديه، وهي أمامه كأنه شيء حر.

تحدثت ياسمين بسعادة وهي ترفع مسجل الصوت «مذياع صغير» ابتاعه والدها لها يومًا:

- الآن ستستمع معي إلى نغماتي المفضلة إلى أن نصل، موافق؟

ابتسم وهو ينظر إليها ويحمل المذياع الصغير عنها وهو يمسك بيدها:

- إن كنت معك فأنا مستعد لأي شيء مهما كان.

ظهر صوت الأنغام يداعب أصوات الطيور التي تهجرت:

"بِرُوْحِي فَتَاة بِالْعَفْاف تَجَمَّلَت وَفِي خَدِّهَا حَب مِن الْمِسْك قَد نَبَت..

وَقَد ضَاع عَقْلِي وَقَد ضَاع رُشْدِي وَاسْتَبَدت وَأَقْبَلَت..

وَلَمَّا طُلِبَت الْوَصْل منها تمنعت..

ولما طلبت الوصل منها تمنعت..

آمان آمان آمان آمان".

نظرت ياسمين له بهدوء وهي تبتسم قائلة بحب وسعادة عادت إليها:

- لا أعلم، ولكني أشعر بأنني ملكت العالم وأنت هنا، لا أصدق أننا سنتزوج قريبًا، أشعر أنك معي منذ الولادة.

ابتسم عبد الرحمن وهو ينظر إلى عينيها تاركًا لنفسه تأملها.

- وأنا أعلم أنني خلقت لأجلك فقط.

نظرت أمامها إلى الطريق، فوجدت الضابط نفسه ينتظر في الكمين، أطفأت المذياع وهي تبتلع تلك الغصة التي تكونت في حلقها، بينما هو أمسك بيدها وظل يتقدم للأمام من دون خوف، وقفت وهي تحتمي خلف ظهره بهدوء من دون أن تنطق بأي حرف، تشعر بأن الحياة تسلب منها، الحب، الخوف يتسلل في كل مكان حولها!

وبعد أن قام أحد الجنود بتفتيشهما وحرس عبد الرحمن على أن يقف بجانبها وهو يمسك يدها، تحدث ديلان بصرامة وهو يتجه إليهما بغضب:

- ومن هذا أيضًا الذي يقف جانبك؟

تحدثت ياسمين وهي تضغط فوق يد عبد الرحمن تمنعه من الانفعال:

- هذا زوجي عبد الرحمن، هل في الامر مشكلة حضرة الضابط ديلان؟

ابتسم ديلان بسخرية لاذعة وهو يقترب من وجهه ينفس الدخان من سيجارته:

- هل أنا يبدو عليَّ أنني أحمق إلى تلك الدرجة يا صغيرة؟ لا شيء أمامي في بطاقة هويتكما يثبت أنكما زوجان!

تحدث عبد الرحمن بانفعال وبدأ يفقده أعصابه وهو يتقدم منه خطوة ليجعلها هي خلفه:

- يا حضرة الضابط هي مخطوبتي، هل جرم القانون اليهودي أن أرافق مخطوبتي أو حتى فتاة الجيران إلى المدرسة.

لكمه بعنف وهو يسحب سلاحه من الخلف يوجهه نحوها وهو ما زال يركله:

- وهل شرفكما المزعوم يسمح بذلك؟ لن أسمح لكما بأن تهددا أمننا، جبناء، خونة.

أشار بيده إلى الحرس الذين كبلوا حركته من الخلف، بينما هو اقترب منها يمسك بحجاب رأسها حتى خلعه عنها وهو يدفع المذياع من يده يتركه يتهشم أرضًا، تحدث ديلان بغضب وهو يدفعها للخلف قائلًا بقوة وهو يجز أسنانه:

- الآن، هل أقتله أمامك أم تستسلمي وتفعلي ما أطلبه؟ ملحوظة صغيرة يا صغيرة: هذا ليس اقتراح؛ هذا ما سأفعله الآن.

أمسك بها من معصمها وهو يعيدها أمامه يتحدث بقسوة ينظر للأخير:

- الآن بكل هدوء تجردي من تلك الملابس، شئتِ أم أبيتِ أنا سآخذ شرفك والآن أمامه.

ثار عبد الرحمن وهو يحاول النهوض بغضب يجتاحه قائلًا بصوت مرتفع:

- لا تفعلي ياسمين، لا تفعلي، يا عديم الشرف أقسم بربي سأقتلك أيها الوغد الفاسق.

صوب فوه السلاح أمام وجهه ثم أطلق الرصاص إلى ذراعه، وهو بكل برود يقترب منها هي تبكي تنهار أمامه، وهو ما زال بجردها من ملابسها بالقوة، صوت صرخاتها المرتفع وهي تحاول أن تستنجد بالأقصى، تستنجد بالوطن، بالرجال، بالعالم، تستنجد بالله كي ينقذها، ولكن لا سبيل، هذا هو المكتوب، هذا هو القدر، الآن هي تشهد على هتك عرضها، تسيل دماء شرفها فوق الرصيف ودماء حبيبها تخطل مع دماؤه

وما زال المذياع رغم تهشمه ينادي بالحرية، ولو كبلوا كل أصوات العالم، لو كبحوا كل العالم، سيظل صوت واحد ينادي بالحرية بالحياة:

بَلِّغُوْهَا إِذَا أَتَيْتُم حِمَاهَا أَنَّنِي مُت فِي الْغَرَام فاذكروني لَهَا بِكُل جَمِيْل فَعَسَاهَا تَحِن عَلَيَّ عَسَاهَا..

وَاجَلُبُوْهَا لِتُرْبَتِي فَعِظَامِي تَشْتَهِي أَن تَدُوْسَهَا قَدَمَاهَا..

إِن رُوْحِي تُنَاجِيْهَا وَعَيْنِي تَسِيْر إِثْر خُطَاهَا..

لَم يَشُقْنَي سوى أَمَلِي أَنَّنِي يوما أَرَاه".

كانت في أقصى درجات الوهن وهي بدمائها التي تحمل الدمع والدم، تحمل دنو الحياة، زحفت كانت تجر الأرض أسفل منها لا تهتم إلى الرصيف الذي يجرح جسدها أو للشمس التي تحرق آلامها، كانت تتمسك به كآخر خيط للنجاة، اقتربت منه بوهن بتعب منهكة، عيناها تفيض من الدمع، ولأول مرة تجرأت واحتضنته وهي تبكي ودموعها تسيل فوق وجهه هو، تحدثت بتعب وهي تفتح عينيه:

_ لا تغلق عينيك حبيبي، انظر إليَّ أنا وردتك! سنعود سويًّا يا عبد الرحمن، أرجوك لا تبرد، ستحقق أحلامنا، أرجوك انظر إلى عيني.

تحدث عبد الرحمن بضعف وهو بالكاد يأخذ أنفاسه الأخيرة، لم يكن الألمُ ألمَ جرحه، هو ألم من نوع آخر، لأول مرة يرى شرف وطنه يسري فوق الأرض، لم تكن فلسطين امرأة عادية؛ فلسطين كانت ياسمين، بالنسبة إليه رام الله كانت عينيها، والآن شرف فلسطين قد أُخذ عنوة وسلت دماؤه فوق الرصيف وتحت أقدام الكلاب، ورام الله تبكي أمامه في عينيه:

_, تبكي يا وردتي، لا تبكي، أقسم لكِ سأنتقم، تالله سأعود وإن كنت على هيئة هواء، أنا أحبك ياسمين، وإن كان الله لم يرد أن يجمعنا في الحلال، فاعلمي أني لآخر أنفاسي وإلى يوم يبعثني الله من جديد أحبك.

رفع يده يغطي جسدها عن أعينهم وهي تحتضنها، تبكي بدأت صرخاته بالارتفاع وهو يحتضنها، لكنه شعر بيد مغتصبة تأخذها بعيدًا عنه وهي تصوب السلاح مرة أخرى إلى قلبه، انطلق الرصاص الى قلب ياسمين قبل أن يصل إلى قلب عبد الرحمن!

صرخت وهي تبعد يده عنها وتهرول بضعف تقع أرضًا تزحف حتى تصل إليه، احتضنت جثته الهامدة تلك المرة وهي تصرخ وتبكي، تحولت سعادتها إلى انهزام وضياع، سلبت منها الأقدار أحلامها كما سلبوا اليهود أرضها وشرفه، والآن انتهي كل شيء والأرض كما هي محتلة وهي محتلة.

الشمس التي غربت لم تغرب عن حزنها، انقضت اربع أيام وهي لا تعلم ماذا حدث، كيف سلبت منها الحياة كل شيء بتلك الطريقة سلبت منها الحرية والحب والأحلام، وفي حلكة الليل دنست الحقيقة وروحها.

ثلاث فتيات في مشروع واحد

كانت كل هذه القصة تُسرد أمام ثلاثتهن من "ياسمين" حيث أنهن يدرسن في السنة الأخيرة من كلية الآداب قسم علم النفس، ولسوء حظهن أو حُسنه، هن معاً في مشروع تخرج واحد. ولتخرجهن من تلك السنة الدراسية يجب عليهن كتابة بحث سوياً.

جلسن ينظرن إلى شاشة الفيديو التي تعرض قصة "ياسمين"، وعلى وجه كل واحدة منهن تجد ما يعكس شخصيتها، "دنانير" التي لم ولن تتأثر بقصص الرجال مهما حدث، لم يؤثر بها موت "مصطفى/ديلان" بل شعرت بالحزن عند سرد "ياسمين" فقط. كانت ملامح "دنانير" الحادة تعكس شخصيتها؛ عيناها تشبه حبات القهوة وخصلاتها التي تحمل اللون ذاته. ملامحها حادة الفك وحتى جلستها القوية وهي تحاول أن تكبح دموعها، كل شيء يجعلها كالكتاب المفتوح أمامك لو كنت من القارئين.

"غفران" التي كانت تجلس تمحو الدموع المتحجرة داخل مقلتيها وعلى أطراف أهدابها، تنفسها الذي أصبح مضطرباً وهي تستمع. ملامحها العربية الساحرة بخصلات سوداء وزوج من العينين المسحوبة باللون الأسود كالليل، وبشرتها التي تميل إلى لون القمح الداكن. ملامح عربية بلون البن، كان يبدو على ملامحها الهدوء والحزن عكس "دنانير" تماماً،

بينما "زمردة" التي كانت تخفي بكاءها وهي تهندم من وضع حجابها الأبيض الذي يتناسب مع ملامحها الشقراء وعينيها الخضراوين. ملامحها هادئة كشخصيتها تماماً، عاطفية ومليئة بالحنان .

نهضت "دنانير" لتغلق الشاشة التي تعرض فيديو "ياسمين" وقصتها ثم جلست أمامهن وهي تتحدث بهدوء:

- القصة مؤثرة جداً وفيها جوانب نفسية كثيرة، لكن جزئية "ديلان" أنا مش مقتنعة بها.

عقدت "غفران" حاجبيها بتعجب وهي تتحدث بغيظ:

- آه، جت على جزئية الفيمينست اللي جواكِ صح!؟، أنا مؤمنة بالقصة وهاشتغل عليها يا "دنانير" وما تنسيش أنكِ السبب في أننا نجتمع سوا بسبب معاملتك للدكتور.

تركتها وهي تسحب حقيبتها وترحل عنهن، بينما ظلت "دنانير" تشعر بالغيظ تضرب الطاولة بيدها من كثرة الغضب، حمحمت "زمردة" بضجر وهي تنهض لتأخذ حقيبتها والجهاز اللوحي الذي كان يعرض حديث "ياسمين" وتحدثت بحرج وهي تخرج:

- أسيبك أنا بقى علشان معايا معاد عند الدكتور وكده سلام يا جميلة.

صاحت "دنانير" بغضب وهي تركل الطاولة بقدميها:

- اسمي "دنانير" محدش يقول لي يا جميلة.

تحركت "دنانير" للخارج هي الأخيرة وهي تشعر بالضيق والحنق على كل هؤلاء البشر. كانت دائماً هي أكثر شخص في المكان غامض وعنيف لا أحد يتفهم ما هي عليه ولا هي تفهم.

وجدت أمامها الدكتور الذي تشاجرت معه منذ أيام، فقرر عقابها ببحث كبير ومجموعة لا تعرفهم تحدث "حسين" بسخرية لاذعة وهو يحملق بها مستهزئاً منها قائلاً:

- شكلك هتنورينا السنة الجاية كمان يا "دنانير" وأنا مش هسيبك برده.

ابتعد وهو ينصرف قبل أن تناديه باسمه وهي تنظر له بسخرية وتحدي وهي تقترب منه:

- دكتور "حسين"، أنا هتراهن معك على تحدي.

ابتسم بفم ملتوي ساخر وهو ينظر لها بهدوء ونبس من بين شفتيه:

- وأنا موافق لأني هكسب.

ابتسمت بتحدي وهي تطالعه بنظرات حاقدة وغاضبة:

- لو خلصت مشروعي ونجحت السنة دي أنت هتقدم على طلب نقل من الجامعة، ولو أنا خسرت وما قدمتش البحث أنا هاعتذر لك قدام الكلية كلها، ومش كده بس أنا مش هعيد السنة هنا تاني وهسيب الكلية.

شعر برغبة في التحدي وهو يبتسم لها وهم يصافحون أيديهم، ثم تحدث بخبث متفوهاً من بين أسنانه:

- من كل قلبي بتمنالك التوفيق يا "دنانير" سلام.

خرجت من المكان وهي تلعن نفسها على هذا التهور الغبي منها وهي تصعد إلى إحدى وسائل النقل العامة تفكر فيما سيحدث إن رسبت فعلاً.
ستنتهي بحق، تطلعت للشمس التي كانت تزين السماء الرمادية اليوم وابتسمت والشمس،.تغازل عينيها بهدوء، لم تكن ترى كل البشر حولها ولا تهتم. دائماً ما كانت تكره البشر وتشعر بالاشمئزاز من وجودهم، تتمنى لو تختفي تماماً عن أعينهم.

ولجت إلى المبنى الذي تقطن به مع والدتها منذ أن كانت صغيرة، أدارت المفتاح في الباب وهي تدلف بهدوء تستمع إلى أصوات الموسيقى الصاخبة والزينة في المكان. عقدت حاجبيها بتعجب وهي تبحث عن والدتها بعينيها، أسرعت إليها.

تحدثت "دنانير" وهي تنظر إلى والدتها بتعجب:

- ماما هو في حفلة هنا ولا إيه؟؟

أجابتها والدتها "بسمة" وهي تشيح نظرها عنها:

- آه، في خطوبتك على "وليد". أنا مش هستحمل دلعك ولا كلام الناس أكتر من كده، وهو شخص ممتاز وأنتِ عارفة. خذي فرصتك في الخطوبة على الأقل كلام الناس يقل.

برقت عيناها وهي تشعر بالصدمة من والدتها وهي تصرخ بغضب:

_ بتقولي إيه يا ماما أنا اتخطب!؟ لا، أنا مش هعمل كده، أنسي وهخرج من هنا حالاً ووريني هتخطبيني لمين.

أمسكتها والدتها من ذراعها وهي تكبل حركتها وتدفعها للغرفة قائلة بعنف:

- أنتِ اللي جبتي لنفسك، حرام عليكِ، عاوزة تفضحينا يعني؟ مش كفاية كل اللي استحملته.

أغلقت باب الغرفة بقوة وهي تقفله من الخارج، بينما "دنانير" التي كاد عقلها أن ينفجر من الغيظ تحاول بشتى الطرق أن تجد حلاً لتلك الورطة التي علقت بها. نظرت إلى هذا الفستان الذي وضع فوق فراشها، كان فستاناً أحمر طويلاً جداً بدون أكمام وبفتحة علوية متوسطة، وبجانبه حذاء ذو كعب مرتفع بلون أحمر زاهي، نظرت بهدوء له وهي ترتديه بهدوء، تحملق بنفسها عبر المرآة بانزعاج من ذاتها، وفي تلك اللحظة تحديداً وجدت والدتها تفتح باب الغرفة وهي تطالعها برضا قبل أن تقترب منها وتحتضنها بحب وهي تبتسم لها.

تحدثت "بسمة" وهي تنظر لها بسعادة:

- ده كان الحل الوحيد يا "دنانير". أنتِ اتقدم لك كام عريس ورفضتي!؟ كتير أوي، الكلام كتر أوي عليكِ، ده غير إني أنا وأنتِ عايشين لوحدنا. "وليد" راجل محترم ومتدين وبيحبك وهيحافظ عليكِ، تصوري إنه حتى هيعمل كتب كتاب بدل الخطوبة .

نظرت لها بصدمة وهي تتحدث بغضب قائلة بهمس كي لا يستمع أحد إليها:

- ماما أنتِ عارفة إني مش عاوزة أتجوز ولا بفكر حتى بعد مائة سنة، أنا عاوزة أموت وأعيش كده، بتحطيني في موقف زي ده ليه!؟، "وليد" محترم وما يستحقش كل ده.

استمعن إلى أصوات الموسيقى التي تعلو وزغاريد النساء التي تعبر عن السعادة المجردة ربما تكون مزيفة لا أساس لها،.خرجت والدتها لاستقبالهم بينما أمسكت هي بطرف فستانها وحملته في يدها، ثم خلعت حذاءها ذو الكعب العالي وتحركت للخارج بهدوء على أطراف أصابعها، تختلس النظر من خلف الحائط وتحاول الوصول إلى المطبخ دون أن يراها أحد. اصطدمت بـ"سمارة"، صديقة والدتها، التي نظرت لها وهي تتساءل قائلة:

- أنتِ رايحة فين دلوقتي؟ الناس مستنياكي برا؟؟

ارتبكت وهي تنظر إلى الغرف المجاورة قبل أن تجيبها بهدوء وتبتسم:

- أيوة يا طنط، أنا بس هدخل أضبط الميكاب جوا وأخرج ليكم. يلا، ثواني وجاية.

هرولت بسرعة وهي تبتعد عن عينيها، غيَّرت خطواتها إلى المطبخ قبل أن تفتح الباب السري في المطبخ بهدوء. شعرت بالدوار وهي تنظر إلى درجات السلم غير المتناسقة والجدران التي امتلأت بالعناكب والحشرات. لكنها أسرعت تغلق الباب وهي تستمع إلى خطوات خلفها. أسرعت تهرول فوق الدرجات وهي تحمل الفستان في يدها وتتألم من قدميها الحافية. وأخيرًا، بعد مدة، هبطت بسلام إلى الأرض. أكملت هرولة إلى المصعد الكهربائي، وكما هو الحال في أي منزل قديم، هناك زوجين من الأبواب للمصعد. هبطت دورًا واحدًا ثم اتجهت إلى المصعد وهي تهرول بفستانها الذي اتسخ وقدميها التي تأثرت بشظايا الزجاج في السلم. طلبت المصعد الذي فتح أمامها قبل أن تشعر بخطوات تسرع نحوها وأنفاس تقترب. أمسكت بحذائها وبلا تردد بدأت تضرب من خلفها بالحذاء.

نظرت للخلف وجدته يرفع حذائها عنه وهو ينزف دماء من جبهته التي أُصيبت بسببها. تحدث بفزع وهو يدلف للمصعد وهي معه:

- **أنتِ مين وإيه اللي عملتيه ده يا بنتي؟**

حمحمت بحرج وهي تحاول البحث عن شيء يغلق جرحه:

- **أنا مكنتش أعرف أنك انت. وبعدين، إيه اللي نزلك من سلم المساعدين؟**

حملق فيها بتعجب وهو يقطب حاجبيه مستنكرًا منها:

- **طيب ما أنتِ كمان نازلة منه، وشكلك ما يبينش أنك شغالة يعني.**

تحدثت "دنانير" بضجر وهي ترمقه بغضب:

- **مسمهاش شغالة، يا اسمك إيه، وبعدين ما تجاوبش على سؤالي بسؤال.**

أجابها وهو يجلس في المصعد ويتألم برأسه بهدوء:

- **أنا عندي سؤال بس، هو ازاي العمارة دي 20 دور بجد!؟ ما علينا، اسمي "نائل". عموماً أنا بحاول أهرب، فا استسمحك تسيبيني في دماغي المفتوحة دي.**

هبطت بجسدها تجلس بجانبه وهي تخرج من حقيبتها التي كانت تحملها مع الفستان منديل قدمته له، بينما هو ابتسم وهو يمسح الدماء التي تمسكت بجبهته. نظر لها بهدوء متحدثًا بسؤال:

- **هو حضرتك ساكنة هنا، صح؟ شكلك كده من قرايب العروسة؟**

عقدت حاجبيها بتعجب وهي تبتلع غصة في حلقها من القلق تشعر أنه ربما يكشفها:

- **عروسة مين؟ معرفش حد هنا.**

بينما "نائل" الذي كان بحاجة للحديث وهو ينظر لها بهدوء، تنهد قائلاً:

- **أنا محتاج أتكلم أصلاً، أنا كنت جاي أخطب "بيان". معرفش تعرفيها ولا لا، بس أنا هربت من خطوبتي حالياً.**

قهقهت بصوت مسموع مرتفع وهي تنظر له بعدم فهم وكالعادة القائمة، انتشرت عدوى الضحك فأصبح هو الآخر يضحك بصوت مرتفع وهو ينظر لها بذهول، تحدثت من بين ضحكاتها وهي تعيد خصلاتها الهاربة للخلف قائلة بتعجب مستنكرة حديثه:

- **عريس راجل بيهرب ليه؟ كأنهم بيجوزوك غصب! الجو ده بناتي أوي. مش مهم أعرف اسمك طالما مش هنتقابل تاني.**

ابتسم "نائل" وهو ينظر لها، حك مؤخرة عنقه بحرج وهو يجيبها بهدوء:

- هو فعلاً أنا مغصوب على الجواز. بابا مات من فترة طويلة وماما اتجوزت وسافرت، وأنا اتربيت مع عمي. وقالي بكل صراحة: ملكش حاجة عندي لو متجوزتش بنتي. شوفي، هو أفلام ثمانينات، بس ده اللي حصل يعني. أنا اسمي "نائل"، وطالما مش هنتقابل يبقى مفيش مشكلة لو عرفنا أسماء بعض.

ابتسمت "دنانير" وهي تستمع لحديثه بإيمان تام أنه لن تراه مرة أخرى. لوهلة شعرت بإعجاب باسمه الذي لم تعتد أذنها على سماعه من قبل. نظرت له بطرف عينيها وهي تتحدث بهدوء:

- أنت عارف أنك عيل، تسيب بنت زي دي يوم خطوبتها، شكلها هيبقى إيه قدام الناس؟ وقدام نفسها هتحس أنها قليلة بجد. مش لاقية لك أي عذر غير أنك عيل، يا أستاذ "نائل".

فور حديثها، فتح باب المصعد معلنًا وصولهم للمحطة الأخيرة من النقاش. تركته هي وخرجت أسرع منه، وهي ما زالت منزعجة من ذيل فستانها الطويل، ناهيك عن لونه الأحمر القاتم الذي يزعجها، وعن قدميها التي بدأت بالنزيف بعد قطرات الدماء نتيجة شظايا الزجاج. نظرت حولها وهي تهرول، تفاجأت بوالدتها ووالد "وليد" وبعض الرجال يسرعون بالجري حولها. أخذت تهرول بعيدًا وبجانبها "نائل" الذي يسرع بالجري معها وهو يسألها بصوت مرتفع:

- الناس دي بتجري وراكِ ليه؟ أنتِ حرامية؟

ضربته بالحذاء مرة أخرى وهي تسرع تختبئ خلف إحدى السيارات في المرآب الخاص بالمبنى. تحدثت بهمس وهي تركله بقدميها:

- أنت يا بني آدم ماشي ورايا ليه؟ أنا حرامية، يا عيل.

ابتسم "نائل" باستفزاز وهو يهمس بهدوء كي لا يسمعهم أحد قائلاً:

- أولاً، أنا كمان الناس اللي هناك دول بيجروا ورايا، وأنا مهندس محترم مش حمل ضرب، صدقيني. عجّزت. ثانياً، العربية دي بتاعتي أصلاً يعني.

استمعوا إلى أصوات تقترب منهم، وكان رجل الأمن المسؤول عن حماية المرآب والسيارات يتحدث بهدوء إلى الرجال الذين تقدموا:

- محدش دخل هنا من الصبح. أنا مش نايم. ويا أستاذ "وليد"، أستاذة "دنانير" مش هنا. أنتم ممكن تدوروا في السلم التاني، يمكن هي هناك.

تحدث "وليد" وهو ينظر إلى "بسمة"، والدة "دنانير" بقلق، وهو يسرع للخارج:

- أكيد هي هناك، وإلا هتكون اتخطفت أكيد.

نظر "نائل" من خلف السيارة، يمسح المكان بعينيه قبل أن يشير إليها بالخروج، وهو يتحدث بهمس قائلاً:

- يلا نخرج سوا بالعربية. لو كل واحد لوحده أكيد

رمقته بغيظ، لكنها استسلمت للأمر الواقع وهي تصعد إلى سيارته. قبل أن يقودها للخارج، شعرت بنظراته الخفية. رفعت حاجبيها وترمقه بغضب مما جعله يشيح بنظره عنها.تحدث "نائل" بتساؤل وهو ينظر إليها بخبث:

"قولي لي، سمعت واحد يقول إن "دنانير" هربت. بردوا، وأنا طالع عند عمي. الأمن قال إن خطوبة أستاذة "دنانير" تفتكري مين دي؟"

حمحمت بحرج وهي تنظر إليه قبل أن تستوعب تدخله في حياتها، وعقدت حاجبيها بغضب قائلة:

"أه، أنا "دنانير". في حاجة يا "نائل"، ولو سمحت نزلني هنا. "

ابتسم "نائل" بفم ملتوي ساخر وهو يعيد حديثها: "أنتِ عارفة إنك عيلة لو سبتِ راجل زي ده يوم خطوبته، هيحس بإيه قدام الناس ونفسه؟ هيحس إنه قليل. وبعدين إيه "دنانير" دي؟ وإحنا في العصر العثماني!"

ضحكت بسخرية لاذعة وهي تنظر إليه بشمئزاز، ساخرة من حديثه بعنف قائلة: "مش عاجبك "دنانير" ده على أساس إن اسمك "شريف"، يعني إيه "نائل" ده أصلاً.

تحدث "نائل" بهدوء، غير مكترث بما قالته:

"طيب، رجلك مصابة وكمان الوقت تأخر. قولي لي رايحة فين وأنا هوصلك، أنا في إسكندرية على سكتي. "

رمقته بغضب، تحاول إخافته قائلة: "أنا كمان نازلة إسكندرية، بس لو قلت عقلك في أي حاجة، أنا هوصلك على جهنم الحمراء. تمام يا "نائل"؟"

رمقها مستنكراً من حديثها وتهديدها، وهو يشير برأسه نحو الطريق، بينما تحدث وهو ينظر إليها مرة أخرى بتساؤل:

"هو إنتِ هربتي ليه؟ أنا مقصديش حاجة، بس شكلهم خايفين عليك بجد.

رمقته بهدوء وانصات، وهي تبتلع غصة في حلقها، ترمش بأهدابها تمنع عينيها من أن تفيض بالدموع، وتحدثت بحزن:

"أنا مش عاوزة أعيد التجربة تاني. تجربة فاشلة، عارف آخر مرة شفت الراجل اللي المفروض يكون أبويا كان من 17 سنة، كنت عندي 4 سنين. تفتكر ممكن أثق في حد تاني؟ أنا عشت حياتي كلها فاقدة الثقة. الحياة لوحدك حلوة أوي، وأنا مش عاوزة أظلم نفسي ولا عيالي مستقبلاً.

نظر إلى ملامحها، وتحول وجهه بشكل دقيق عندما حزنت. تغيرت ملامحها الزاهية إلى أخرى متعبة ومنطفئة، كلوحة ثمينة لكنها حزينه مسروقة بعيداً عن متحفها. ألوانها داكنة وملامحها حادة، طباعها مختلفة ومخيفة.
فستانها القاتم لا يناسب أفعالها، عينيها العسلية البريئة لا تناسب حديثها وحدة ملامحها، لكنها مازالت لوحة لا تعديل عليها، تبقى مثل الأثر، بين الورد نباتة لا تموت، لا شيء يوقفها، فتاة منفردة لا شيء يشبهها.تنفس "نائل" بهدوء وهو يثبت نظره إلى الطريق، يبتلع جمرة من النار في حلقه وهو يتذكر ما مر به، وتحدث بلا وعي: "مين قالك إن الرجالة بس اللي خونة؟ أمي بعد موت أبويا، وأنا كان عندي 6 سنين، سابتني وسافرت

اتجوزت. حتى المكالمات كانت كل عيد. الفكرة مش في الراجل أو الست، الفكرة في النوعية، وكل الستات الخيانة في دمهم

التفتت إليه بدهشة، وصدمت بكلماته، ثم تحدثت بغضب وهي تشيح نظرها عنه:

"الستات بردو!؟ أنتم اللي صنف خائن أصلاً وقليل الأصل، ولو سمحت متتكلمش تاني."

هدأت الأصوات في لحظة من الهدوء، يسعون فيها إلى المجهول. الآن، تمضي إلى وجهة مجهولة، تاركة خلفها كل شيء من تحديات. ولكن هناك سؤال مجهول يروضها، هل حقاً عليها الهروب من كل هذا؟ هل هناك أحلام أخرى تنتظرها؟ هل هناك أشخاص أم أنها ستظل وحيدة إلى النهاية الأزلية؟بدأ البحر يظهر خلف الأسوار الحديدية. ابتسم وهو يرى البحر، ربما لم يكن صافيًا، لكنه كان أسود حالك بلون الليل. مجرد رؤيته يسحرك، نسمات الهواء التي تندفع منه تجعلك محلقًا في السماء. لا يوجد حدود هنا، لا يوجد حقيقة، كل شيء سراب.نظر إليها وهي تتابع البحر بوجه مبتسم على محياها، ملامح لطيفة لم يرها من قبل. فتح النافذة الزجاجية التي كانت تخفي خلفها هذا المنظر المبهر، بينما أخرجت يديها للهواء وهي تبتسم. تبدو كالسحر، تشبه البحر من شعرها المموج إلى الخرائط بين وجهها إلى حد السيف خصرها، إلى تلك النظرة الحادة التي يكسوها لمعان وبريق شرس، إلى تلك البشرة الممزوجة بالخمر وجهها، إلى عينيها التي تسرق بريق الأشياء حولها. مرسومة بدقة كآخر لوحة لفنان توفي بعد رسمها، لا شيء يشبهها

تحدثت "دنانير" بهدوء، وهي ترمقه، تخبره عن الطريق:

"احنا قربنا من بيت طنط "ميرفت". ادخل على نفس الشارع

ابتسم "نائل" وهو يتابع الطريق قائلاً بتساؤل:

"أنت ضامنة إن طنط دي مش هتبلغ عنك لأهلك اللي هربتي منهم؟

تناست ما فعله، وأجابته بابتسامة واثقة عريضة:

_لا، دي خالتي أخت ماما وأصلاً بتأييد رأيي، متخفش. أنت بقى هتعمل إيه في الكارثة اللي عملتها

تحدث "نائل" وهو يتنهد بضجر وحنق من هذه الظروف التي يمر بها:

_ أنا ليّا مكتب شغل هنا، ده بتاعي، بس مكنتش بشتغل فيه أصلاً. هروح هناك كام يوم وبعدين أرجع بيتي في القاهرة

توقف بعد مدة أمام المنزل الذي أشارت إليه. نزل وفتح لها باب السيارة، وهو ينظر إليها بوداع مبتسم:

_ خلاص كده، انتهت لحد هنا

ابتسمت هي الأخيرة وهي تهبط، وشاحت بنظرها عنه:

_ من الواضح كده إننا لازم ما نتقابلش تاني، ولو اتقابلنا ياريت ما نعرفش بعض.

حرك رأسه بإيماءة وهو يراها تختفي وتتلاشى من أمامه، مصاحبة لاختفائها أصوات ارتطام الأمواج بالصخور. رفع رأسه ينظر إلى القمر بهدوء قبل أن يدلف إلى سيارته ويتناسى كل ما مر به تدريجياً، كما فعلت هي تماماً. ربما علينا الهروب لكي نصل، ولكن إلى أين نصل؟ هذا ما يحدده الطريق.

****

أشرقت الشمس تطغى بأسرها على الكون بأكمله، تعيد للحياة مفعولها وضاءها. ربما عندما تنثر ضوءها فوق الأرض تزداد الأرض حياة مرة أخرى.

كانت "غفران" التي تدلف إلى المبنى الذي تقطن به بمفردها تحمل حقائب تسوق كبيرة، وهي تدلف إلى المصعد. ذمت شفتيها بضجر وحنق عندما وجدت سيدة في منتصف عقدها الرابع تقف معها بالمصعد، وبدأت السيدة بالتحدث.

تحدثت السيدة "نرجس" وهي تنظر إلى هيئة "غفران" قائلة:

- قولي لي بقى، أنتِ عايشة هنا لوحدك؟ مخطوبة صح؟

ازداد تنفس "غفران" وهي تنظر إليها بجمود قائلة بعدم ود:

- أه، عايشة لوحدي، لا، مش مخطوبة.

تشدقت السيدة وهي تحرك شفتيها بطريقة شعبية معروفة، وتنظر إليها بعلامات الشفقة:

- طيب يا بنتي، مش كنتِ تسكني مع أهلك أكرم لك بدل ما أنتِ لوحدك كده، وكلام الناس مش بيرحم. وبعدين، متزعليش، كان في بنات أسوأ من حالتك دي واتجوزوا.

برقت عينيها بصدمة، وعقدت حاجبيها بتعجب قائلة بستفسار وحزن لم تظهره:

- أهلي متوفيين من زمان قوي، وللأسف مفيش حد أسكن معاه. وإيه أسوأ من حالتي دي؟ هو حضرتك شايفني إيه بالضبط؟

تحدثت "نرجس" بدون رحمة، وهي تأخذ مفعول الكلمات على قلب الأخيرة، لم تهتم لمشاعرها أو قلبها الذي يتحطم لألف المرات:

- أقصد يعني يا حبيبتي، على لون بشرتك. أصل أنتِ عارفة، دلوقتي البنات كلها بتحط حاجات كده تداري السواد، أقصد لون البشرة الأسمر.

دمعة هاربة سقطت من خلف الوجه الجامد الذي تقابل به الناس، قبل أن تتحدث "غفران" بفظاظة وهي تتخلى عن آدابها قاصدة إحراج الأخيرة:

- والله يا طنط، لما حضرتك قلتي سواد البشرة، يمكن نعرف نداريه. إنما سواد القلوب، نعمل في إيه؟

جحظت أعين الأخيرة وهي تراقبها قبل أن تصمت، ويحتقن الدم في وجهها وهي ترى "غفران" تترك المصعد ومعها حقائبها، دلفت إلى منزلها بخطوات غير ثابتة، والدموع تترقرق في عينيها كأمواج البحر. سقطت أرضاً وهي تجلس بهدوء، احتضنت نفسها وهي تضم ركبتيها إلى صدرها، قبل أن تخرج وشاحاً مطبوعاً عليه نقوش فلسطينية، وتشم عبق رائحته التي تجعلها على قيد الحياة إلى الآن. تذكرت "سليمان" حبيبها الذي قضت عمرها كله تتمناه. تذكرت مؤازاته وكلماته وحنانه، بكت وازداد نحيبها وهي تجهش بالبكاء بصوت مرتفع، وهي تتذكر حديثه لها .

كان المساء لطيفاً بنسمات الهواء التي تحمل رائحة الزهور، والسماء ينيرها القمر. وهو بجانبها، كانت تبكي وهي تتذكر معاملة شقيق أبيها المتوفي لها، وهو كان يمسد على يدها بهدوء.

تحدث "سليمان" بحنان وهدوء، وهو يحاول بث الطمأنينة بداخلها بحب بلهجته الفلسطينية الرقيقة:

- **ما تبكي، أنا جنبك. دموعك هي السيف الذي يقطع فيا. بيعمل اللي مقدروا يعملوا اليهود بيقتلوني، صدقيني، بينتهي كل هذا قريباً، بيكون عندنا بيت، ما بتركك تشتغلي أو تتعبي حالك، بكون جنبك طول الوقت، وأي أزمة هكون أول يد تتمد لك، بمحي من قلبك وروحك وعقلك كل ذكرى بتتعبك. بتعرفي، بنتظر لحظة زواجنا بس عشان أحضنك، بخبّيك جوايا، بحكيلك عن كل لحظة حسيت بالعجز وأنا مش قادر أحضنك فيها.**

أجابته "غفران" وهي تمحو الدموع التي تعلقت بأهدابها، تشعر بشيء من الحزن الجديد، وتحدثت بحسرة وقهر:

- أمتِ بس يا "سليمان"، أنا من يوم موت بابا وماما، وأنا مش شفتش يوم حلو. عمتي بتقصد تحسيني بالضعف. عمرها ما سابت فرصة متنمرت على بشرتي فيها. أنا مش قادرة أعيش معاها. أنا مليش أهل.

أمسك بكفها، وهو يتحدث بحنان، يشعر بحزنها أضعافاً ونيراناً تلتهم قلبه من داخله عليها:

- ما تقولي ما عندي أهل، أنا أهلك. أنا البابا والماما وابنك وخيك وكل شيء، أنتِ بالنسبة لي كل شيء. ووجهك الذي تحل بلون القهوة البراق نقطة ضعفي، يا سمراء قهوتي. أنتِ وفي عينيكِ سواد الليل جمع.

عادت إلى الواقع وهي تحمل وشاحها فقط الذي تبقى منه، وهي تغطي عينيها به، تتذكر آخر لقاء بينهم وهو يتلاشى أمامها .

تحدث "سليمان" الذي كان يستعد للسفر، وهو يبتلع غصة في حلقه، والبكاء يغرق عينيه من الدمع:

- حاولت أن أتعاشى وأن أفكر مثل البقية، أسافر ولا أعود وأؤسس حياتي بوطن آخر، لكنني اكتشفت أنه لا يوجد نفس بعد حدود فلسطين. لا يوجد نفس لي بعد غزة، روحي بتطرق جسدي في كل مرة بطرق الوطن. لقد خلقت فيها ومن ترابها، ولا أمل بأن أطرقها حتى أموت بها ويتطهر دمي برمل غزة. أنا دائماً سأكون بجانبك،

ولكن لن أستطيع الاقتراب أكثر من هذا. أنا بجانبك من بعيد، لأنني ما أحببت ولن أحب غيرك، "غفران". أنتِ الغفران من الله الذي غفر كل خطاياي بكِ.

عادت لواقعها الأليم، والآن بعد استشهاد "سليمان" على يد الاحتلال، مرت ثلاثة أعوام وهي تنتظره. تعلم أنه لن يعود وأنه تلاشى وامتزجت دماؤه مع رمال غزة. كم تمنت، لكنها لا تصدق ولا تعي أنه انتهى. مات "سليمان" كما مات والدها، كما ماتت والدتها، وماتت عمتها أيضاً. ورغم كراهيتها لتلك المرأة، إلا أنها عانت الكثير بعد وفاتها.

ومن بعد فراقه، الأيام تجر بعضها إلى اللا شيء بدون وجه محدد. تقسم أنه مر ألف عام في غيابه. كل شيء تأثر بالغياب وشاب قبل موعد المشيب. لقد غادر وهي في العشرين من عمرها، كانت حينها شابة بشعر أسود كالليل، غجرية وعينيها مليئة بالانتصارات. اليوم هي في السبعين من عمرها، شعرها غزاه الشيب، وعينيها ذبلت مليئة بالخيبات. ولكنه كم هو في ذاكرتها بابتسامة واسعة لا تنطفئ، وخلف الجدران والأبواب، خلف الأسوار، الصمت يصم الأذن وروحها في الدجى تحترق تلتهمها نيران الشوق. لم يشاهد أحد نيرانها، ولكن الجميع أشعلها. ودموع روحها تحترق، والمدامع لا تطفئها. تريد أن تبكي، تريد أن ترحل، تريد أن تهرب، ولكن إلى أين وجميع العوالم حزنها.

****

بينما أشرقت الشمس فوق البحر وتناغمت الأمواج بالصخور، تعطي أسطورة من الأنغام التي لن تتكرر. وكحال عروسة البحر التي لا تنام، كان الجميع في فوضى، ولكن الجميع هنا خُلق من البحر، لذلك دائماً يعود إليه.

استيقظت "دنانير" بضجر وهي تصطدم مع أشعة الشمس. تحدثت بحنق وهي تشعر بالغضب يسيطر عليها من خالتها "ميرفت":

- **في إيه ده؟ صبح برضه، هو أنا هربانة من "وليد" ومن خطوبة عشان أصحي كده .**

تحدثت"ميرفت" بحنق وسخرية مجيبة أيها وهي تضع طعام الإفطار فوق الطاولة:

- **أومال المفروض أصحي حضرتك إزاي!؟ يا بنتي ما عندكيش ذرة دم تعرفك إن الدنيا مقلوبة عليكِ!؟**

تحدثت بلا مبالاة وهي تحمل القطة التي كانت تلتف حول قدمها:

- **وفيها إيه؟ خليني في أحضان عروسة البحر المتوسط الإسكندرية، وأرتاح من "حسين" ومن "وليد" ومن الكلية، الكلية دي أنا نسيت خالص.**

تعجبت "ميرفت" من رد فعلها وهي تقطب حاجبيها متسائلة بتعجب:

- في إيه مصيبة تانية ولا إيه!؟

أجابت "دنانير" وهي ترسل رسالة نصية عبر هاتفها إلى الفتيات شريكاتها في مشروع التخرج:

- أيوة بكلم البنات اللي شركوني في مشروع التخرج، هنتجمع هنا.

تتسارع الشمس مع القمر ليبدأ الليل بالعودة مرة أخرى وفي حلكة الليل واصطدام الأمواج، كانت كل من "غفران" و"زمردة" يهبطان من السيارة بنزعاج من هذا السفر الغريب لـ"دنانير". لم تكن علاقتهم السطحية تزودهم بمعلومات عنها، إلا أنها شخص غريب جداً وغير مفهوم.

تحدثت "زمردة" وهي تنظر إلى "غفران" قائلة بهدوء:

- تصدقي "دنانير" دي غريبة جداً، بداية من اسمها لملبسها لأسلوبها، حتى الفريق الغريب بتاع البنات اللي في الكلية بتاعها عامله حزب مرأة صغير كده.

تحدثت "غفران" بجمود وهي تطلب المصعد الذي يصلهم لشقة "دنانير":

- على العموم أنا مش مهتمة أصلاً، كل اللي يهمني أخلص المشروع وخلاص.

وبعد لحظات، كانت "دنانير" تقف أمامهم بفستان أسود اللون طويل ذو أكمام واسعة ومدون عليه عبارات وحروف بالخيوط الذهبية، ولجوا إلى داخل المنزل الذي كان بسيطاً جداً ومريحاً للعينين يطل على أمواج البحر والسماء تحاوطه. تحدثت "زمردة" وهي تنظر إلى "دنانير" بتساؤل:

- إيه بقى الموضوع اللي جبتينا علشانه!؟ وياريت بسرعة علشان أنا مفهمة جوزي "عزيز" إني عند ماما.

رمقتها "دنانير" بلا مبالاة وهي تجلس وتعطيهم بعض الأوراق التي كتبتها حديثاً عن حالة "ياسمين". تحدثت بشرح وهي تعرض عليهم الأوراق:

- شوفوا بقى اللي أنا وصلت له إننا هنشتغل على الجانب غير المفهوم من قصة "ياسمين" وجوزها وكل ده، وطبعاً جزئية الأديان.

عارضتها "غفران" بانفعال وهي تنظر لها بغضب قائلة بدفاع:

- هو ده اللي همك!؟ وليه منتكلمش عن القضية عموماً واللي بيحصل هناك!؟

انفعلت "دنانير" بغضب وهي تدافع عن حرية رأيها بطريقة غاضبة:

- أنا بتكلم عن جزئية معينة، لكن انتِ عايزة تقلبيها رأي عام، مش مشكلتي.

وقبل أن تلعنها "غفران" بصوت مرتفع وهي تقترب منها، انتبها إلى صوت ارتطام جسد "زمردة" بالأرض. أسرعت "دنانير" تهرول نحوها بخوف وهي تحاول حملها قبل أن تتجه إليهم "ميرفت" التي أمسكت بهاتفها تتصل بالطبيب .

تحدثت "دنانير" وهي تحاول إفاقتها قائلة بخوف وقلق:

- هي تعبانه ولا إيه؟ ماتت؟

رمقتها "غفران" بغضب وهي تدفعها بعيداً بقوة:

- أنتِ أكيد مجنونة والله، استعجلي الدكتور.

رمقتها بغيظ وهي تتصل بالطبيب مرة أخرى تخبره بأن يسرع في المجيء، وبالفعل لم تمر دقائق حتى كان الطبيب أمامهم. دلف إلى الغرفة ثم خرج بعد ثوانٍ يدعوهم للدخول وهو يلملم أشيائه ويجمعها في حقيبته قائلاً بهدوء:

- مفيش أي حاجة الحمد لله، المدام حامل مش أكتر بس لازم تعملي شوية فحوصات، أنا هكتب عليهم.

خرج الطبيب من الغرفة تصاحبه "ميرفت" للخارج، بينما أخذت "زمردة" لحظة لتستوعب ما قاله من الأساس قبل أن تصرخ بسعادة كالاطفال وهي تنظر لهم:

- أنا هبقى أم!؟ أنتوا متخيلين أنا هبقى أم بجد؟؟ "عزيز" هيفرح قوي، أنا هعمله مفاجأة، يلا نروح.

رمقتها "غفران" بسعادة وهي تبارك لها بعد أن احتضنتها، بينما "دنانير" نظرت إليها بحدة وهي تتحدث ببرود:

- براحة بس شوية، وكل شوية "عزيز" هو مفيش غيره في الوجود ولا إيه!؟

نظرت لها "غفران" وهي تستشيط غيظاً منها، تحدثت بضجر وهي تأخذ بيد "زمردة":

- بقولك إيه يا "دنانير"، أنا مش هستحمل أسلوبك ده أكتر من كده، نتقابل في الجامعة ولو عندك بحث تاني اتفضلي اعمليه لوحدك ونقدم مشروعين عادي.

رمقتها "زمردة" بحزن وهي تعدل حجابها قبل أن تذهب مع "غفران" للخارج. كانت نظراتهم لها مليئة بالغيظ والغضب بينما هي تصنعت أنها لم تحزن وهي تجلس جانباً تتنفس بهدوء تحدثت "ميرفت" وهي تأنب ضميرها بغضب وهي تشيح نظرها عنها:

- عجبك كده يا بومة، كلامك كله سم ليه كده؟

تركتها وهي ترحل قبل أن تبدأ وصلة تأنيب الضمير التي تتقنها كأي امرأة في سن الأم حتى وإن لم تكن أماً أو لها ابن من الأساس.

بينما في السيارة، كانت "غفران" تتولى القيادة وبجانبها "زمردة" التي ما زالت تضع يدها فوق بطنها كل دقائق وهي تبتسم. ربما كان الأمر يشبه الجنون، تبدو كالبلهاء وهي تتأكد من وضع جنين عمره أيام وأسابيع لم يكمل الأشهر بعد.

تحدثت "زمردة" بتساؤل وهي تنظر إلى "دنانير" بهدوء:

- هو شكلي عبيط أوي قدام "دنانير"!؟ أصل أنا من ثلاث سنين وأنا بتمنا اليوم ده.

ابتسمت "غفران" وهي تربت على يدها بحب، شعرت بأنها تحتاج إليه دائماً. ما كانت "زمردة" شخصية هشة جداً وحساسة:

- ولا يهمك، هي شكلها دماغها تعبتها، أنتِ متجوزة من كام سنة يا "زمردة"؟

أجابت "زمردة" بهدوء وهي تنظر من النافذة إلى الطريق:

- من ثلاث سنين تقريباً، جواز سريع، خطوبة خمس شهور، وجواز بعدها. وأنتِ، مفيش حد في حياتك لحد دلوقتي؟

ابتلعت جمرة من النار تشكلت على هيئة غصة في حلقها وهي تمحو تلك الابتسامة المزيفة من وجهها قائلة:

- كان في حد، لكن توفي، الله يرحمه.

لا تعلم لماذا، عندما تأتي أي كلمة عنه تعود تلك الغصة إلى حلقها، تعود النيران تلتهم قلبها، يعود كل شيء إلى يوم فراقه، يوم فراق روحها عن جسدها.

استمعت إلى صوت "زمردة" التي تترحم عليه وتدعو لها بالصبر، وكل ما يفعله المرء في تلك الظروف التي يستمع فيها لأخبار الوفاة.

باغتتها "غفران" بسؤال سريع وهي تنظر إلى حجاب رأسها:

- مرتاحة في الحجاب!؟

أدركت "زمردة" السؤال وهي تبتسم براحة قائلة بهدوء:

- آه، أكيد. شوفي، هو في الأول لبسته بسبب ماما وبابا، بس بعد فترة طويلة حبيته جداً واتعودت عليه.

ابتسمت "غفران" بهدوء وهي تذم شفتيها بحزن:

- أنا لبسته فترة بس كانت عمتي دايمًا تقولي إنه وحش عليا وعلى لون بشرتي، ودلوقتي مش قادرة أرجع غير كده. نظرية العامة اتغيرت عنه، بقيت محتاجة مؤهلات كتير علشان ألبسه.

انتبهت "زمردة" إلى وصولها أسفل منزلها، طلبت من "غفران" التوقف، عرضت عليها أن تدلف معها للمنزل، ولكن بعد إلحاح طويل نفذت "غفران" مطلبها وعادت للسيارة، بينما الأخيرة طلبت المصعد وهي تبتسم تحتضن بطنها، أدرجت المفتاح في الباب وهي تفتحه بسعادة غامرة، تبتسم وتنادي على زوجها باسمه بدلال وحنان وهي تقترب من الداخل. لكنها تفاجأت بمجموعة من الناس في منزلها، من بينهم زوجها "عزيز" ووالدته "أسماء" التي ارتبكت بشدة عند رؤيتها،تقدمت بخطوات مهزوزة وغير ثابتة، تشعر بشيء ما في داخلها يصرخ بشدة ويجب عليها الابتعاد، الرحيل، الهروب، شعور بالخوف والحزن والألم'

تحدثت بهدوء وهي تنظر إلى زوجها "عزيز" الذي بدا عليه الارتباك والقلق وهو يبتعد عن الناس:

- مين دول يا "عزيز"؟، بيعملوا إيه هنا في بيتنا؟!

أجابتها والدته "أسماء" ببرود وهي تحاول استفزازها:

- دول يا "زمردة" أهل "هيام" خطيبة "عزيز" جوزك. إحنا مش هنستنى أكتر من كده، ثلاث سنين متجوزين من غير طفل .

برقت عيناها من الصدمة، مندهشة مما تسمعه، شعرت بصوت تهشم قلبها وهي تنظر إليهم بهدوء. لم تصرخ، لم تفعل شيئاً سوى أنها تحدثت بهدوء وهي تلقي بفحوصات الحمل التي قامت بها في طريقها مع "غفران". تحدثت بألم شديد والنيران تشتعل في قلبها:

- دي التحاليل والفحوصات بتاعت الحمل، أنا حامل يا "عزيز"، في ٣ أسابيع بس. كنت صح لم أخرت الخلفه، كنت عارفة أنك أناني وقليل الأصل

أمسك بيدها وهي تبتعد وتهرب منهم. نظرت إلى وجهه ولم تعطي أي فرصة سوى صفعه بقوة جعلته يرتد للخلف. صرخت به لكي يبتعد، هرولت بعيداً وسرعت إلى درجات السلم. لم يكن عقلها يسعفها لطلب المصعد، فسقطت الدموع من عينيها وهي تجهش بالبكاء. لم تكن دموعها فقط ما يسقط من عينيها، بل كل الذكريات التي تهشمت كالزجاج أمامها. ازداد خفقان قلبها وهي تجري وتسرع في الطريق. لم تجد أي وسيلة لنقلها إلى منزل عائلتها، حقيبتها مازالت في منزلها ولا تمتلك أي نقود، حتى هاتفها تهشم أثناء هبوطها من المنزل. بعد مدة من الألم والجري في منتصف الليل، كانت تتخفي عن أعين الناس التي كانت تلتهمها بفظاظة. دموعها امتزجت بقطرات العرق، تنفست بهدوء وهي تحاول إعادة تنفسها وهي تشعر أن الهواء تلاشى ولم يعد موجوداً من الأساس. طرقت الباب بيدها التي ملأها الوهن والتعب، وعندما فتح الباب، وجدت والدها أمامها. تشوشت رؤيتها وشعرت بأنها بداخل إعصار قوي، وهذا آخر ما رأته عينيها قبل أن يُغمى عليها تدريجياً في حضن والدها.

أفاقت في غرفتها، تنظر حولها إلى والدتها "ميادة"، والدها "محسن"، شقيقتها الكبرى "مريم"، وأولادها الخمسة. "مريم" تقيم مع والديها بعد أن سافر زوجها للعمل بالخارج، وعلى المتوقع تزوج من سيدة من جنسية عربية

أخرى، ويكتفي بثلاثة أشهر في مصر يرى فيهم "مريم" وزوجته وأولاده الخمسة.

تحدثت "ميادة"، والدتها، بهدوء بعدما عرفت كل شيء من "عزيز" الذي اتصل بهم يخبرهم بالقصة كاملة:

- أنتِ كويسة يا "زمردة"؟! إيه اللي عملتيه ده يا بنتي؟ حد يعمل كده؟!

نظرت إليها "زمردة" بوهن ومرض، تستنكر حديث والدتها بدهشة:

- عملت إيه يا ماما؟ أنا دخلت بيتي لقيت "عزيز" بيفرج عروسته على بيتي.

أجابتها شقيقتها "مريم" وهي تجلس بجانبها، قائلة بهدوء يحمل البرود:

- وفيها إيه؟ هو لحد دلوقتي ما عملش حاجة، كان المفروض تنقذيه مش العكس.

شعرت "زمردة" بأنها على وشك فقدان عقلها، نظرت إليهم بتفحص، قائلة بغضب:

- أنتوا عاوزين تجننوني؟ إيه اللي بتقولوه ده؟

أجابها والدها "محسن" ببرود وغضب وهو يبتعد عنهم:

- بصراحة، موضوع الطلاق ده تشيليه من دماغك، هتعيشي فين؟ عاوزة الناس تشوفك إزاي؟ أنا خلاص اتفقت مع "عزيز" إنه يجي بكرة يقبلك ويصلحك.

شعرت بخنجر يطعن قلبها من الخذلان. هل حقاً هذه نظرتهم لها؟ يريدون التخلص منها؟ لا أحد يهتم إليها لتلك الدرجة. كانت لا شيء بالنسبة إليهم وإلى زوجها! كيف أفنت ثلاث سنوات معه؟ وكيف أفنت عمرها بأكمله مع هؤلاء البشر؟ بكت مرة أخرى وهي تحتضن نفسها، كيف تهرب من تلك الفوضى، من تلك الضوضاء التي تبتلع عقلها، والنيران تتلظى بداخلها تنهش قلبها بكل وحشية. أغمضت جفنها لعله يستريح، لكن الذكريات العابرة يمكن أن تثورك مرة أخرى. رأته أمامها في زفافهم، في أيام سعادتهم، كلماته تصدح في أذنها والعذاب يمزقها. ظلت على هذه الحالة حتى الصباح، الذي لم يكن مشرقاً. لم تشرق الشمس من الأساس، الهواء اليوم لم يأتي، ومواعيد الحياة لن تعود. كل شيء سيء، كل شيء غريب. لماذا تحتاج هذه الغربة في الوطن؟ وعن أي وطن نتحدث؟ هل الأماكن هي الوطن؟ العوالم، الحضارات! ربما الأصدقاء، الطرق، العائلة، الأحباب. ربما الوطن أيدٍ وأعين وأحضان. ربما نحن الوطن، ربما لا يوجد وطن من الأساس.

خرجت بمظهر يرثى له أمام عائلتها، عينيها تفيض بالدموع، وجهها الذي كمده الحزن، جسمها الهزيل وملابسها غير المهندمة. لكنها جلست معهم تتناول الطعام، لا أحد ينظر إليها وكأنهم تناسوا ما حدث. شعرت برغبة عارمة بالبكاء، وبالفعل بكت مرة أخرى وهي تشهق كالغريق بينهم .

استمعت إلى والدتها التي ضربت الطاولة وهي تتحدث بغضب:

- مش هننتهي من الموضوع ده أبداً! هو أنتِ أول واحدة في العالم؟ وبعدين، الراجل قال مش هيتجوز وهيعتذر لك.

صرخت وهي تحرر ما بداخلها من الألم، كانت تظن أنه تلاشى مع الماضي. تحدثت من بين عبراتها وهي تشهق بقهر وحسرة:

- أنا إيه يا ماما؟ أنا مش زعلانه منه، أنا زعلانه عليا. ليه محبتونيش؟ ليه "مريم" فضلت البنت الطيعة المفضلة؟ ليه ختنتوني وأنا طفلة مكملتش 13 سنة؟ ليه اتجوزت كده؟ ليه عشت كده؟ ليه عمركم ما فكرتوا فيا؟ ماما، ليه محضنتنيش ولا مرة؟ ليه يا بابا؟!

انهارت بعد صفعة قوية من والدها جعلت الدماء ترتد إلى فمها، تشعر بطعمها وهي تبكي. لم تكن المرة الأولى، استمعت إليها وهي تحتضن نفسها وتبكي.

تحدث "محسن"، والدها، بصوت جهوري خشن يحمل الرعب في طياته، وهو يمسك بمعصم يدها ورسغها قائلاً:

- أمال كنتِ عاوزة إيه؟ عاوزة تفضحينا؟ عاوزة تحبي؟ عاوزة نكون ديوثين؟ أمور الضحية دي مش بتمشي عليا وإلا أنتِ عارفة هعمل معاكِ إيه.

كانت نظراتها الوهنة كالمخمور وهي تشير إلى إحدى الغرف، وما زالت تبكي وترتجف قائلة بحزن وهي تمسح عبراتها بأطراف ملابسها:

- عارفة يا بابا، هتاخدني الأوضة اللي هناك دي وتضربني. الحل الأمثل هو التعدي على الأضعف منك. عارف أنت قتلتني كام مرة؟ مرة بضربك ليّا، مرة لم قتلت الحاجة الوحيدة اللي حبتها، قتلت الكلب بتاعي وأنا صغيرة، شفتك بتدي سم، لم قطعت رسمي علشان حرام، لم كسرت

رجلي، لم لعبت جمباز. دي مش دياثة أنك تحبني، مش دياثة، ده الدين اللي أنت بتتعامل بي! ربنا مقالش كده. النبي اللي أنت أخدته قدوة كان يعبر عن حبه، كان أحن الناس على بناته. وصاكم في النساء، وانتوا خنتم العهد.

أكملت مرادفة وهي تبتسم، تحمل حقيبتها وخيبتها وحزنها وآلامها، وهي ترحل قائلة بهدوء مملوء بالحسرة وهي تبتسم:

- على العموم، أنا كان نفسي بس تحضنوني وتقولوا لي كلمة حلوة وتقفوا قدام "عزيز". بس حضرتك مش هتقف، وماما مش هتحضني علشان البنت ملهاش إلا بيت جوزها، و"مريم" مش هتاخد حقي. أنا كان نفسي تحضنوني وأكون بنتكم، بس شكله كتير عليا أوي.

تركتهم ومازالت الدموع تتراقص في عينيها كالأمواج، تركتهم ومضت إلى طريق مجهول ومظلم وضبابي تتخبط فيه وترتطم بكل شيء بلا أنيس أو مصباح يضيء حلكة الطريق .

بينما أشرق الصباح بشكل مختلف على "غفران" التي لم تتناول فطورها كعادتها، اكتفت بكوب من القهوة، وهي ترتدي ملابسها وتأخذ حقيبتها، ولم تنسَ وشاح "سليمان". طبعاً، أخذت تنظر إلى مظهرها وهي تضع الحجاب، تحاول أن تكسر حاجز الخوف. تذكرت كلمات شقيقة والدها السامة، كانت الكلمات تخترق أذنها كالسهام في قلبها. نظرت إلى سروالها الأسود من القماش، شعرت بأنه غير ملائم للحجاب. طبعاً ألقت بالوشاح كحجاب الرأس كالمصعوقة، وهي تترك تلك الأفكار السامة وتخرج من المنزل.

وقبل أن تتقدم خطوة، وجدت يدًا تمنعها من الخروج وتغلق الباب. كان شاب طويل بجسد وبنية قوية. بعد أن اتخذت خطوات حتى تمكنت من التعرف على ملامحه، كان بالتأكيد "عدي"، ابن عمتها. تراجعت إلى الوراء، ولكنها اصطدمت بالحائط الذي أعلن عن نهاية المطاف.

تحدث وهو يقترب منها ببرود متحدثًا بغل وكراهية، نظراته الحادة تلتهمها"

- مفاجأة مش كده؟ كنتِ مفكرة لما تسيبيني في المصحة مش هرجعلك؟ أخذتِ شقة أمي وعشتِ فيها وأنا بلغتكِ عني .

إجابته "غفران" وهي تدفعه بيدها بغضب بعيدًا عنها:

- أنت اتجننت رسمي، البيت ده بتاع بابا وماما الله يرحمهم، وبعد موتهم أنت ووالدتك اللي عشتوا عندي. أمك اللي نزلتني أشتغل وأنا 15 سنة علشان أصرف عليك وعليها، وبلغت عنك لأنك مجرم ومدمن وحاولت تنتهك عرضي، ولا تنكر!

ابتسم لها وهو يدفعها إلى الأرض، يركلها بقدمه وهو يفتح سرواله قبل أن يعتريها بجسده، وهو يتحدث بكراهية وحقد:

- وأنا يومها ما أخدتش اللي عاوزة، وراجع أوريكي.

أبعدته عنها بجسدها الهزيل مقارنة بجسده، ولكنه أمسك بيدها وهو يمسك رأسها، يضربها بالحائط بقوة، يحاول تمزيق ملابسها. ركلته بين فخذيه بقوة، وهي تسرع بالهرولة إلى المطبخ لتحمل أي سلاح تدافع به عن شرفها.

سحب هو قدميها بيده، يحاول كشف ملابسها وما بين فخذيها بكل وقاحة. ركلته في صدره وهي تسحف بجسدها مرة أخرى قبل أن تستعيد توازنها، وهي تهرول إلى المطبخ، أمسكت بسلاح أبيض، سكين في المطبخ، يناسب لمعان وجهه.

تحدث باستخفاف وهو يقترب منها، ينظر إلى ملابسها التي تمزقت من الأعلى، تكشف عن حمالة ثديها:

- وده اللي هتحمي نفسك بيه؟ مش هخرج من هنا غير لما أكسرك. متخفيش لو حكمت أني أقتلك الأول قبل ما أ اغتصبك هعمل كده.

شعرت بأنها انتهت، إما أن تقتله أو يقتلها. وبينما هي تستمع إلى تعليقاته الجنسية القذرة وهو يقترب منها ببرود، تجمدت يدها على السلاح، وهي تراه يقترب منها وأصوات خطواته مثل طبول الحرب. شعرت بأنفاسه تحرق وجهها وهو يضع يده على عنقها، يحاول خنقها، وبيدها الأخرى شعرت بلمساته على ثديها وهو يحاول خلع ملابسها.

لم تتردد ولو لدقيقة وهي تغرس السكين في قلبه، شج صدره والدماء تسيل على يدها، قبل أن تخرج السكين مرة أخرى وتغرسها في يده التي تجرأت على انتهاك جسدها. شعرت بدمه الذي ملأ الأرض، ركلته بكعبها العالي، وهي تدلف إلى غرفتها بسرعة. ألقت بملابسها المليئة بالدماء وارتدت أخرى، وهي تشعر بنظراته تراقبها في كل مكان. أخذت حقيبتها وهي ما زالت تبكي وتنفسها غير منضبط، حتى أنها لم تنتبه لنفسها وهي تخرج من المنزل بأكمله وبيدها السكين الذي نظفته من الدماء قبل أن تلقي به في الطريق.

بينما "دنانير"، التي كانت تجلس في مقهى بالجامعة، تنظر حولها بهدوء، تتابع حال الجميع هنا، وتراقب الفراغ بأعين خاوية. اشتاقت لوالدتها، وشعرت بشعور من الوحشة والغربة يعتريها بشكل ما. هي تعلم جُرم مفعلته في حق "وليد" يومها، ولكنها لن تفعل هذا لأجل كراهية، بل لأجلها هي .

أفاقت من شرودها على يد "زمردة"، التي لم تتحمل حين نظرت إليها، وألقت بنفسها في عناقها. وبالرغم من كراهيتها وبغضها للعناق والتلامس، ربتت "دنانير" على ظهرها وهي تكمل العناق، تستمع إلى بكاء "زمردة" وهي تهدهدها مثل الأطفال.

تحدثت وهي تجلس، لم تعد تقوى على الوقوف مرة أخرى، كان حديثها غير مفهوم ومبعثر:

- أنا مش هرجع تاني يا "دنانير"، ده كان عاوز يتجوز عليا.

استنكرت "دنانير" من حديثها المبهم وهي تطلب منها أن تهدأ ثم تسرد لها كل ما حدث، وجدت نفسها تجلس تستمع لكل ما حدث منذ تركتها ليلة أمس.

شعرت "دنانير" بالحزن لأجلها والشفقة، وهي تربت فوق يدها بهدوء قائلة بحنان لم يعتاد عليه أحد من قبل، وجه آخر لها لم تظهره كثيراً:

- وأنا مش هسيبك تعملي حاجة زي دي، "زمردة"، أنت هتيجي معايا الإسكندرية.

خرجوا معاً إلى السيارة التي جاءت بها إحدى جيران "دنانير" بعد أن طلبت منها أن توصل لها سيارتها. وقبل أن يصعدوا إلى السيارة، رأت "دنانير" "غفران" التي كانت تمشي وكأنها تجر خلفها خذلان العالم بأسره. عقدت حاجبيها وهي تتجه إليها بهدوء، حاولت لمسها لكي تفيقها، لكنها فوجئت بأنها تنقض عليها مثل الوحش الذي لاقى فريسته.

تحدثت "دنانير" وهي تبعدها عنها بارتباك وخوف:

- في إيه، "غفران"، أنتِ كويسة!؟

نظرت لها بأعين زائغة وخاوية حتى منها، وهي تردد بهستيريا، جسدها بأكمله يرتجف بخوف وعينيها مصعوقة:

- أنا قتلته، قتلته مات قدامي كـ... كان عاوز يتعدى عليا، أنا عملت كده إزاي!؟

برقت أعينهم من الصدمة، لكن سرعان ما أدركت "دنانير" ما يحدث، وهي تمسكها بهدوء وتجبرها على الصعود إلى السيارة، بينما تولت هي مقعد القيادة بوجه عبوس. ظلت "زمردة" تبكي بصمت وهي تحتضن "غفران" التي كانت في حالة يرثى لها.

هذه القصص هي مقتطفات من رواية: "لماذا وداعًا وليس إلى اللقاء؟" الرواية الكاملة متوفرة ورقيًا.

لطلب النسخة الكاملة أو معرفة تفاصيل النشر، يمكنك التواصل من خلال صفحتي:

https://www.facebook.com/share/1As1DBC1PG/

او على حساب الكاتبة : چنى الجارحي للحصول على النسخة .